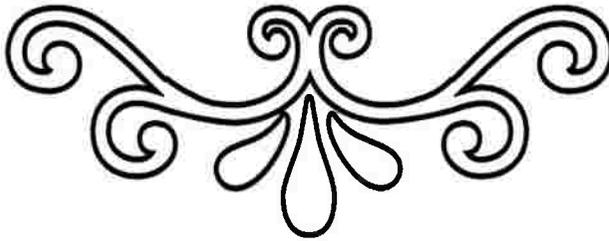


الباب السابع

الأمل في أمة الإسلام



هذه الأمة ولادة بعلمائها ومفكرها وساستها وقادتها على مدار التاريخ، فهل جفّ رحم هذه الأمة، أم أصابها العقم؟!

وخذ على سبيل المثال ما قاله **كارينسكي**: «إن الخدمات التي أداها العرب للعلوم غير مقدّرة حقّ قدرها من المؤرّخين، وإن البحوث الحديثة قد دلّت على عظم الدّين الذي علينا للعلماء المسلمين الذين نشروا نور العلم، بينما كانت أوروبا غارقة في ظلمات القرون الوسطى، والعرب لم يقتصروا على نقل علم الإغريق بل زادوا عليها، وقاموا بإضافات هامة في ميادين مختلفة».

لقد أدرك الغربيون فضل العلماء العرب، وكانت الجامعات الإسلامية في الشرق معقدّ أمالهم وكعبة قُصّادهم، وكان علماء المسلمين في تلك الجامعات يرحّبون بضيوفهم وتلاميذهم، وأخذوا ينقلون هذه الذخائر العلميّة، ويترجمون الكتب العربيّة إلى اللاتينيّة.

جاء في «مقدّمة أحد كتب الكيمياء»: «إنكم يا معشر اللاتينيّين لا تعرفون بعد ما هي الكيمياء، ولا ما تراكييها وأصولها، وسترون ذلك مشروحًا في هذا الكتاب الذي نقله عن العربيّة».

لقد كان العلماء العرب متحلّين بالإسلام، ومتسلّحين بالإيمان، مما جعلهم متحلّين أغلب الأمر بحميد الصفات، وجميل الخلال، من صبر ومثابرة، وعفّة وبُعدٍ عن الصغائر، وترفّع عن الدّنيا، وانكباب منقطع النظير على العمل في جدّ صارم، مع زهد في الترف والمال والسلطان.

وهذا هو التفسير الوحيد لهذا الإنتاج الرائع الضخم الذي يُعرفون به بين علماء العالم، والذي يجعلهم أقرانًا أكفأ لأعظم العلماء المعدودين في العالم كلّ على مرّ العصور والدهور.



يقول «سارتون» عن «ابن الهيثم العالم العربي المسلم»: «إنه أكبر عالم طبيعي مسلم، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر (الضوء) في جميع الأزمان، لقد كان أساس الأخلاق عند «ابن الهيثم» العربي المصري إيثار الحق، لا الميل مع الهوى، إنه خلُق العالم الفاضل. ألسنا نرى أنه مثلٌ يُحتَدَى به بعد عصره بنحو ألفٍ من الأعوام». وهذا «البيروني» الذي تميَّز بعقليَّة نادرة المثال نستطيع أن نضعها في مصافِّ أرقى العقليَّات العلميَّة في الوقت الحاضر.

فهو في الفلك فلكيٌّ ممتاز بشهادة علماء الفلك من الفرنجة والعرب، وهو في الجيولوجيا جيولوجيٌّ ممتاز بشهادة الجيولوجيين المعاصرين، وهو في التاريخ مؤرِّخٌ محقِّق موثق، واسع الاطلاع، شامل المعرفة، قادر على الاستقراء والاستنتاج. هذه أمثلة من التاريخ. وفي العصر الحديث لا يمكن أن ننسى علماء الذرَّة والفضاء والكيمياء والطبِّ، وهم كثيرون نحتاج إلى صفحات لذكر أسمائهم؛ مما يدل على أن هذه الأمة لا ولن يصيبها العُقم أبداً، تجد الآلاف من العلماء والمخترعين الذين غيروا وجه العلم الحديث في أوروبا والعالم، وفي غيرهم من البلاد الإسلاميَّة الأخرى. وأحبُّ أن أذكر نموذجاً من نظم الحكم أيام الخلافة الراشدة، مما يُسهل علينا أن نضع لنا في هذا العصر نموذجاً يتلاءم ويتماشى مع هذا العصر، مع المحافظة على عقيدتنا وهويَّتنا، وأخلاقنا، وعاداتنا وتقاليدينا.



* من نظم الحضارة الإسلاميَّة:

- ١- **الخلافة:** وتعني: حكومة راشدة رشيدة تقوم على قواعد من الكتاب والسنة. وهي **تمثل:** خليفة المسلمين، يعاونه وزراء، وقضاة، وقواد، ونواب، ومستشارون، فهو نظام سياسيٌّ متكامل.
- ومن أبرز ملامحها:**

□ **الإمامة:** راجع في ذلك كتاب الإمام ابن حزم «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، وكتاب الإمام أبي الحسن الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية».

وتم تحديد واجبات الإمام فيما يأتي:

- ١- حِفْظُ الدِّينِ عَلَى أَصُولِهِ الْمُسْتَفْرَعة.
- ٢- تَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَشَاجِرِينَ، وَقَطْعُ الْخِصَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ.
- ٣- حِمَايَةُ الْبَيْضَةِ، وَالذَّبُّ عَنِ الْحَرِيمِ؛ لِيَتَصَرَّفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ.
- ٤- إِقَامَةُ الْحُدُودِ؛ لِتُصَانَ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُحْفَظَ حُقُوقُ عِبَادِهِ.
- ٥- تَحْصِينُ الثُّغُورِ بِالْعُدَّةِ الْمَانِعَةِ، وَالْقُوَّةِ الدَّافِعَةِ.
- ٦- جِهَادُ مَنْ عَانَدَ الْإِسْلَامَ بَعْدَ الدَّعْوَةِ حَتَّى يُسَلِّمَ، أَوْ يَدْخُلَ فِي الذَّمَّةِ.
- ٧- جِبَايَةُ الْفِيءِ وَالصَّدَقَاتِ، وَتَقْدِيرُ الْعَطَايَا، وَمَا يَسْتَحِقُّ فِي بَيْتِ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْتِيرٍ.

٨- اخْتِيَارُ الْوَلَاةِ الْأُمْنَاءِ، وَمُبَاشَرَةُ أُمُورِ الْأُمَّةِ، وَالْقِيَامُ عَلَى مَصَالِحِهَا.

□ **البيعة:** وذلك حرصاً على وحدة الأمة، وخوفاً من انشقاقها أو فتنتها.

□ **الشورى:** وهي التي سبقت النظم الديمقراطية الحديثة شكلاً (الديكتاتورية مضموناً)، وذلك فيما يتعلق بنظام الحكم وسياسة الأمة، وكانت الخلافة الإسلامية نموذجاً رائعاً من المثالية والتطوير، وشتان بين الشورى والديمقراطية الآن:

- فالشورى في الإسلام لا تعرف إلا وحدة الأمة وتمائلها، والديمقراطية تعمل على تفرقة الأمة وتشعبها فرقا وأحزاباً.

- الشورى في الإسلام لا تسمح بكيان إلحادي شيوعي يعمل ويتجمع ويخرب، أما الديمقراطية فهي تسمح بمثل هذه الأحزاب، وبجميع الأفكار الشاذة والمنحرفة عن الهدى والفترة والمصلحة.

- الشُّورَى لا تسمح بالرِّبَا أو الاحتكار أو الاستغلال، وتشجّع على الزَّكَّاتِ والإنفاق، أمّا الديمقراطيةُ الرأسماليَّةُ فهي على النقيض تمامًا. وغير ذلك كثير.

٢- **الوزارة:** وهي واحدة من النظم السياسيَّة الرئيسيَّة في الإسلام، وقد عرَّفها ابن خلدون بقوله: «هي أمُّ الحُطط السلطانيَّة والرَّتب الملوكيَّة، لأن اسمها يدل على مطلق الإعانة»^(١).

واسمها مأخوذ من: الوِزْرِ وهو الثُّقل؛ لأنَّ الوزير يحمل عن الملك أعباءه وأثقاله، **وقيل:** اسمها مأخوذ من الوِزْرِ وهو الملجأ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعرفته، **وقيل:** إنَّ اسمها مشتقُّ من الأَزْرِ، وهو الظهر لأنَّ الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر.

• وقد اتخذ رسول الله ﷺ الوُزراء من رجاله وصحابته، فكان وزيراه: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

كما اتخذ أبو بكرٍ عمرَ وزيرًا له، وثنى بعثمان بن عفَّان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وظهرت الوزارة في الإسلام انطلاقًا من المشاركة في تحمل المسئوليَّة وعدم الاستبداد.

وكانت الوزارة على درَين: **الأول:** وزارة التفويض: وتجمع بين السيف والقلم، **والثاني:** وزارة التنفيذ: وتختصُّ بالرأي والحزم.



• الأسس والأداب التي تقوم عليها الوزارة هي:

(الدِّين، الكفاءة، العدل في الأقوال والفعال، الوفاء بالوعد والوعيد، والجد والحق والصدق).

يقول **الماورديُّ** موصيًا الوزيرَ: «فاجعل الدِّينَ قائدَكَ، والحقَّ رائدَكَ، يذللُّ لك كلَّ صعب، ويتسهَّل عليك كلَّ خطب، لأنَّ للدِّين أنصارًا، وللحقِّ أعوانًا...، وللدِّين سلطانٌ قد انقادت إليه إمامته، واستقرت عليه دعامته، فاجعله ظهيرًا لك في أموركَ،

(١) «مقدمه ابن خلدون»، ص (٦٠٣).

وعوناً لك على تدبيرك، تجد من القلوب خشوعاً، ومن النفوس خضوعاً، فما اعتزت مملكة إليه إلا صالت، ولا تحققت بشعاره إلا طالت، وفي الحديث: { مَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ وَزِيرٍ صَالِحٍ مَعَ إِمَامٍ يُطِيعُهُ وَيَأْمُرُهُ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى }^(١).

ومنها العدل: حتى يتقاد الناس إلى طاعته، ويكفوا عن معصيته، فالعدل استئثار دائم، والجور استئصال منقطع، والوزير في الحقوق سفير مؤتمن، وكفيل مرتهن، عليه غرمها ولغيره غنمها. ثم العدل في الأقوال: فعليه ألا يخاطب الفاضل بخطاب المفضول، ولا العالم بخطاب الجهول، والعدل في الأفعال: فلا يعاقب إلا على ذنب، ولا يعفو إلا عن إنابة، وعلى الوزير أن يفى بوعده ووعيده، فالوفاء بالعهد حق يجب عليه أن يوفيه، والوعيد حزم له فيه الخيار، ولكن أن يقترن بخلق الوعيد عذر حتى لا يهون وعيدك، ليكون نظام الهيبة به محفوظاً، وقانون السياسة به مضبوطاً^(٢).

واشترط الفقهاء في وزير التفويض: (الإسلام، والحرية، والعلم بالأحكام الشرعية، والمعرفة بأمرى الحرب والخراج).

واشترطوا في وزير التنفيذ: (الأمانة، وصدق اللهجة، وقلة الطمع، وألا يكون بينه وبين الناس عداوة أو شحناء؛ لأن العداوة تصد عن التناصف، وتمنع من التعاطف، وأن يكون قوي الذاكرة، صاحب ذكاء وفطنة، وألا يكون من أهل الأهواء؛ فيخرجه الهوى من الحق إلى الباطل، فالهوى خادع للألباب، وصارف عن الصواب، وأن يكون صاحب حنكة وتجربة)^(٣).

ولقد تطورت الوزارة وأعمالها من عهد بني أمية مروراً بالعصر العباسي، والماليك،

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده عن عائشة رضي الله عنها، ب: «مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ..» ح (٨٠٧).

(٢) «الماوردي» في كتاب الوزارة من ص (٣٤) وما بعدها - بتصرف -.

(٣) انظر: الأحكام السلطانية، لأبي يعلى الفراء، ص (٣١)، والمنهج السلوك في سياسة الملوك، ص (٢٠٩)، لعبد الرحمن بن نصر العدوي الشيزري.

تطوُّراً تنظيمياً.

٣- الإمارة: ازدادت أهمية الإمارة بتَّساع الدولة الإسلاميَّة، وتمكين الفتوحات للإسلام في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ومِنْ ثَمَّ عَوَّل خلفاء المسلمين على عددٍ مِنَ الوُلاة الأكَفاء لحكم وإدارة تلك الأقاليم.

وكان خلفاء رسول الله ﷺ يقلِّدون إمارة البلدان لُقَّوَادِّهم الفاتحين، ويفوِّضون لهم صلاحيَّات واسعة حرصاً على مصلحة البلاد، ومع ذلك فقد ظلت العلاقة قويَّة بين هؤلاء الأمراء وبين الحكومة المدنيَّة.

والإمارة عند الفقهاء، إمارة عامَّة وإمارة خاصة. والأول على ضربين: إمارة استكفاء، وإمارة استيلاء.

ولكل واحدة اختصاصات وشروط يجب توافرها فيمن يلي هذه الإمارة على توسُّع في كتب الفقه والولاية.

٤- النظم الإداريَّة: كان لرسول الله ﷺ نظام إداريٌّ منظمٌ يتمثل في:

- مجلس شورى مكوَّنٍ مِنْ «أبي بكر وعمر وسعد وغيرهم».
- كما كان يَتَّخِذُ كُتَّاباً للمراسلات بينه وبين الملوك والحكام المجاورين، ومنهم عبدالله بن الأرقم، وغيره.
- وله كاتب للعهود، وهو **علي بن أبي طالب**.
- وله أمين وصاحب سرٍّ، وهو **حذيفة بن اليمان**.
- وله قائمٌ على خاتمه، وهو **ابن عوف المري**، و**الربيع بن صيفي**.
- وله مَنْ يقوم على المداينات.
- وله مترجمون بالفارسيَّة والقبطيَّة والروميَّة والحبشيَّة والعبريَّة (كزيد بن ثابت) وغيره.
- واستعمل ولاة في شبه الجزيرة منهم: **عتاب بن أسيد** استعمله على مكة، و**معاذ**

ابن جبل أرسله قاضيًا على اليمن.

- وله رُسل وسفراء إلى الملوك، فقد أرسل **حاطب بن أبي بلتعة** إلى المقوقس، و**شجاع بن وهب** إلى الحارث الغساني، و**دحيّة بن خليفة الكلبي** إلى قيصر، و**سليط بن عمرو العامري** إلى هوزة بن علي الحنفي، و**عبد الله بن حذافة السهمي** إلى كِسْرَى، و**عمرو بن أميّة الضمري** إلى النجاشي^(١).

٥- الدواوين في عهد عمر رضي الله عنه:

(ديوان للعتاء، وديوان للجيش، وديوان للاستيفاء - يُجَدِّد مصادر الدخل ووجوه الإنفاق - وديوان للبريد، وديوان للتوقيع والمراسلات، وديوان للقضاء والنظر في مظالم الناس، ونظام للحسبة - الإنكار والرّدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وديوان للشرطة، وآخر للمجاهدين)، وكانت أهم مهام أهل الحسبة هي:

- الاهتمام بحقوق الله تعالى من العقائد والعبادات.
- الاهتمام بحقوق الأدميين؛ من الغش، والتدليس في الثمن، وبيع الغرر، وبيع المصراة، والخزانة، والنجش وغيرها.
- ما كان مشتركًا بينهما.

٦- النظام المالي والاقتصادي: تُعدُّ كتب الخراج والأموال من أوائل المصنفات

الاقتصادية التي عرفتھا المدارس الفقهيّة والتاريخيّة في العالم، حيث وضع الفقهاء أصعب وأدق الأعمال الفكرية، وقدموا خدمة جليلة للإنسانية، ووضعوا بين أيدي الحكام الإجمال والتفصيل للأحكام المتعلقة بالمال والاقتصاد، مستنبطة من كتاب الله صلى الله عليه وآله، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله، بهدف تعريف الناس بحقوقهم، ودفع الظلم عنهم.

فاستطاع هؤلاء الفقهاء توظيف الفقه في هذا المجال لخدمة التاريخ والإنسانية.

(١) كتاب «تاريخ الرُّسل والملوك» للطبري (٢/ ٦٤٤).

وَمِنْ أَهْمِ الْكُتُبِ فِي هَذَا الْمَجَالِ:

- كتاب «**الخراج**» للقاضي أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم (١١٣ - ١٨٢ هـ).
 - كتاب «**الخراج**» للشيخ أبي عبيد الله القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤ هـ).
 - كتاب «**الأموال**» لأبي أحمد بن زنجويه (١٨٠ - ٢١٥ هـ).
 - كتاب «**الأحكام السلطانية**» للفقيه أبي الحسن علي محمد بن حبيب البصريّ البغداديّ الماورديّ (في منتصف القرن الخامس الهجريّ).
 - كتاب: «**شذور العقود في ذكر النقود**» للمقرئزي، وكتاب «**النقود والموازن والمكاييل**» للمناوي، وكتاب «**الأنظمة الماليّة الإسلاميّة**» للطبري.
 - وفي «**مقدمّة ابن خلدون**» يشير إلى المعاش ووجوبه مِنْ الكسب والصنائع، ويذكر التجارة والأموال وتنميتها، والربح والعرض والطلب، وأثره في انخفاض أو ارتفاع الأسعار.
 - كما أسهم الرَّحالة والجغرافيون المسلمون فيما سجّلوه مِنْ وقائع وملاحظات بآداة علميّة ثريّة عن أوضاع المال والاقتصاد في تلك البلدان.
 - لقد وضع المُفكِّرون المسلمون الأوائل قواعد فكرٍ اقتصاديّ، استمدّوا أصوله مِنْ الكتاب والسُنّة؛ حيث احتوت على الأطر العامّة وبعض التفاصيل الدقيقة الخاصّة بالزكاة والصّدقات والغنائم والجزية، وفي هذا يتأكّد حرص الإسلام على نظام اقتصاديّ واضح، واستطاع المسلمون أن يطوروا ويضيفوا إبداعات اقتضاها الواقع، وألحّت بها الضرورة، وذلك عندما كانت العقلية خلاقّة قادرة على الإبداع والعطاء، وارتبطت تقصير الأُمَّة في نظامها الاقتصاديّ البديع والفريد مع تقصيرها في أمور العقائد والعبادات، وتشتّت الأُمَّة فرقاً وجماعاتٍ وأحزاباً بعد أن أسقطت خلافتهم، وزالت دولتهم ووحدتهم.
- ٧- **النظام الاجتماعيّ**: نَظَمَ الإسلام حياة الفرد وحياة الأُمَّة لينيّ مجتمعاً متوازناً صحيحاً مِنْ العِلل والأمراض والعُقَد والحَلل.

أقام مجتمعاً منح الإنسان فيه حرية العقيدة والعبادة، وحرره من العبودية إلا لله وحده، لا يخشى أفرادُه إلا خالقهم سبحانه وتعالى.

أقام هذه البنية الاجتماعية على أساس من المفاهيم والأخلاق والقيم والمبادئ تميّز بها، وحافظَ عليها حتى استمرت كما هي حتى يوم الناس هذا.

وتجلّى عبقرية الإسلام في نظمه الاجتماعية التي نجحت في مواجهة النظم والأعراف والتقاليد المتوارثة، فعدّها وغيرّها ما لم تتوافق مع أنظمة الإسلام ليستقرّ نهائياً ما نزل به الشرع الحكيم، ويتطهر مجتمع شبه الجزيرة العربية من الفساد الذي استشرى في بنيانه، وترسخ الدعائم الاجتماعية الجديدة بما يكفل العدالة الاجتماعية، ويحترم العقل، وتقدر الجوانب المادية والروحية للإنسان.

قضى الإسلام منذ أول وهلة على العنصرية والعصبية، وأقرّ الأخوة الإيمانية التي لا مكان فيها للون أو جنس. أقرّ الرسول ﷺ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في المدينة النبوية لتقوم الأمة في أروع اتحاد وتناسق وتآلف يمكن أن يوجدّه نظام اجتماعي آخر.

حلّت الأخوة الإيمانية مكان العصبية القبلية، وكان التكافل الاجتماعي في أروع صورة، فشرعت الزكاة فريضة وتطهيراً وتزكية للنفس والمال، ولتؤكد الصلة المستمرة بين أفراد الأمة، والتي يظهر فيها شعور التكافل والتضامن والتعاون لتحقيق الحقيقة الخالدة: أمة واحدة كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضها بعضاً.

• وتتضح عناية الإسلام الحقيقية بالمجتمع في اهتمامه بالأسرة وملائمته للفترة، ليسمو بذلك على سائر الخلق، ولتبرز التوازن الاجتماعي والنفسي.

فأمر وشجّع على النكاح وأقرّه بإيجاب وقبول (دون إكراه)، وباستئذان ولي الأمر ليصون للمرأة كرامتها، ويحفظ لها منزلتها وحقوقها في المجتمع، ولتحقق السكن والموادة والرحمة والألفة، وناسق ووازن الإسلام بين الحقوق والواجبات بقواعد محكمة.

قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِضْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ

فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرِيحِنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٣٨﴾ [البقرة].

وكفل الإسلام للأسرة الحياة الكريمة، وقدم لهم ما يجب من التربية والرعاية والإنفاق والمسئولية، وجعل الرجال قوامين على النساء لحماية ورعاية وتدبير أمور الأسرة، والإنفاق عليها، وحلّ معضلاتها.

وجعل هذه الرابطة (الزواج) رابطة مقدّسة سماها الإسلام حين جعل قاعدتها السكن والمودة والرحمة، لتتحقق بذلك الطمأنينة والاستقرار.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم].

وحدد الإسلام الخطوات التي تُنهي العلاقة الزوجية؛ فشرع الطلاق علاجاً لمشكلات يستعصي حلّها، ويحفظ كرامة المرأة والرجل على السواء، وحرّم العُضْل للنساء، والظهار والإيلاء.

والطلاق في الإسلام تنزيل مُحْكَم يخدم المرأة والرجل، قال تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وشرع مع الطلاق العِدَّة، وجعل لها أحكاماً في الرَّجْعَةِ، وأحكاماً إذا انقضت العِدَّة.

وأكد الإسلام على الإصلاح والعفو، وجعله أقرب للتقوى، وأمر بعدم نسيان الفضل بينهم، والاحتفاظ بالرابطة الإيمانية حتى بعد الطلاق، وجعل الإمساك بالمعروف والتسريح (الطلاق) بالمعروف والإحسان، ويبيّن أن المؤمن لا يفرك (يبغض) مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر.

• وهذا القانون القرآني يؤكد على احترام المرأة في موقف عسير مثل هذا، فيصون كرامتها بحدود الله ﷻ التي شرعها، ولم يفرّق الإسلام بين الأبناء والبنين في الهبة والعطية، وفسخ كل عادات الجاهلية، وأقرّ حقوقهنّ وأمر بتوقيهنّ وتأديهنّ وتعليمهنّ الدين، وصان كرامتهنّ وحفظ حقوقهنّ في الزواج والميراث، إلى غير ذلك من الحقوق.

• ووضع الإسلام قواعد للميراث ضمن بها حقّ كلّ ذي حقّ فيه، ولا يتم توزيع التركة إلا بعد النظر في الدين والوصية، والأسس التي وضعها الإسلام في توزيع الميراث واضحة، وتؤكد عدالة الدين وصلة النسب، بما يؤكد تفردّه وتميّزه عن غيره من الأديان والأنظمة والقوانين القديمة والحديثة.

وشرع الإسلام تعدّد الزوجات، وأقامها على العدل، والقدرة على الإنفاق، وذلك بما يناسب طبيعة الرجل والمرأة، وتقتضيه الطبيعة والحاجة.

والتعدّد يقدّم حلولاً لمشكلات المجتمعات الاجتماعية الكثيرة، ويقضي على الخيانة واتخاذ الأعداء.

٨- البيئة الفكرية: أتاح الإسلام المناخ الفكريّ الذي مكّن العلماء وأصحاب الفكر من الإسهام في إثراء الحضارة الإسلامية في كافة مجالاتها.

وقد قدّم المسلمون عربهم وعجمهم ما بهرّ العالم من إنتاج فكريّ ونهضة علمية وأدبية كبرى تشهد بها آدابهم، وما فتحوه وقدموه للعالم من مجالات مبتكرة اعتمد عليها العالم الحديث بشكل مباشر.

فنون العرب في اللغة والتاريخ والجغرافيا والأدب وسائر العلوم تظهر آثارها بشكل واضح وملاموس فيما لحقها من تراث إنسانيّ.

• ويوضّح **الفارابي** في «**تحصيل السعادة**» عوامل ومقومات تقدّم الأمم وازدهارها:

أولها: العلم. **ثانيها:** قوّة الأفكار. **ثالثها:** الفضائل الخلقية.

٩- النظام العسكري: التحديات التي كانت تواجه الإسلام من بدايته كانت قويّة

وعتيدة وعنيدة وكثيرة، منها: عناد وخصومة وعداوة المشركين في قريش وقبائل العرب، والقوة العسكرية الغشيمة لدى الفُرس والرُّوم.

وكانَ أمامَ المسلمين الأوائِل مهمة تبليغ الإسلام، وتعريف الناس به. لذلك أذن الله تعالى لنبيّه بالقتال^(١)، ولمواجهة العدوِّ وحماية الإسلام، وما كانَ ذلك الإذن إلا بعد أن ظلموا وعُدّبوا، وأُخرجوا من ديارهم بغير حقّ.

ثم كان الأمر بالقتال حتى يكون الدين لله، وانقسم الكُفّار بعد أمر الجهاد إلى ثلاثة أقسام: (أهل صلح وهُدنة، وأهل حرب، وأهل ذمّة)، وظهر النفاق والمنافقون فأمر الله رسوله أن يقبل منهم ما يعلنون ويترك سرائرهم، وأن يجاهدهم بالعلم والحجّة.

• وضع النبي ﷺ الأسس الاستراتيجية التي ميّزت النُظْم العسكرية في عهده ﷺ.

- نظّم صفوف المجاهدين واتّخذ غرفة للقيادة، واستخدم طريقه الزحف المتراصة.

- اتّخذ مجلساً لشورى الحرب، وإمّرة الجيش.

- عقد الألوية وفرق الاستطلاع، وقسّم الجيش إلى (قلب ومقدمة وميمنة ومسيرة ومؤخرة).

- رَسَم الخُطَط العسكرية، واستخدم الحرب النفسية.

- طوّر في التحصين، وعمل الخنادق الحربية، وكان يقود الجيش بنفسه ﷺ.

• **واستخدم المسلمون أسلحتهم منها:** السيوف والرماح والأقواس والأسهم والدروع والخوذات (البيضة)، والمغافر (وهي ما يلبس تحت القلنسوة) والخيل والإبل.

- ثم طوّروا أسلحتهم واستخدموا المجانيق والعرادات والدبابات البدائية.

(١) ولم يكن بدعاً من الرُّسل في ذلك، فقد قاتل داود عليه السلام، وقتل جالوت، وقاتل موسى عليه السلام، ودعى بني إسرائيل للقتال للدخول إلى الأرض المقدّسة، وكذلك أرسل سليمان عليه السلام، الملكة سبأً يُهددها بجنود لا قبّل لهم بها. وانظر: كتاب: «لا تؤمّلوا» للمؤلف يرحمه الله.

- وقام المسلمون بعمل التنظيمات العسكرية، فأنشأوا للجند ديواناً يهتم بأمرهم وأسْرهم.
- وقام النظام العسكري في الإسلام على أُسس ومبادئ وقيم لم يعرف العالم نظيرها:
مثل الإنذار قبل الغزو ثلاثاً، والتخيير بين الإسلام أو الجزية أو القتال، والنهي عن قتل
الأطفال والشيوخ والعباد والنساء (غير المحاربات)، والنهي عن قطع الشجر أو تخريب
الزرع، أو الغلول في الغنيمة، وإكرام الأسرى وعدم قتلهم أو تعذيبهم، وقبول الفدية
فيهم، وإجارتهم، وعرض الإسلام عليهم.

وإن جَنَحَ الأعداء إلى السَّلْم قبلوه، وإن خانوا العهود عاقبهم وانتقموا منهم.

ومع ما ذكرنا فإن بعض النظم قد نهجت وتطورت بشكل أو بآخر في ظلّ نظام
ديمقراطيّ تم تطويره وتحديثه وتعديله ليلائم موقعهم الجغرافي والتاريخ والعادات
والتقاليد، ومن هذه الدول: (إندونيسيا، ماليزيا، تركيا)، أخذت ما في الديمقراطية من
خير ونفع، والحقُّ يُقال: إن كثيراً مما في الديمقراطية من منافع أغلبها مقتبس من
الإسلام، وتاريخ المسلمين العريق.

لذلك نقول في ختام هذا الباب: إن الديمقراطية ليست كلها شرّاً مستطيراً، ولا خيراً
منيراً، وليست نعمةً أو نعمةً، والذي يُجدد لنا ذلك هو الباب الثامن « الحقوق،
والواجبات ».



وقفات

بين الحقوق والفضى

• حكى بعض الثقات أنه شاهد على موقع أمريكي على النّت أحداث قضيّة، المتهم فيها جنديّ أمريكيّ، شاهده وهو يدّس مواطناً أمريكياً بقدميه على الأرض بعنف وقسوة، فتمّ إحالة الجنديّ للمحاكمة بعدة شهور، وتولى الجنديّ الأمريكيّ الدفاع عن نفسه أمام هيئة المحكمة، قائلاً:

سيدي القاضي: إنّ من حقّ المواطن التّظاهر والاعتصام على الرصيف المُخصّص، وأنا موجود لخدمته ومساعدته طالما ظلّ على الرصيف، وإن طال وقوفه، أمّا كونه ينزل إلى الشارع، ويعطلّ حركة السير والمرور فليس له إلّا الحذاء يدّس به.

وبعد المرافعة والمداولة والنقاش الحادّ بين هيئة المحكمة صدر الحكم بالإجماع: براءة هذا الجندي!

• أذكر هذه الحادثة لأوضح للشباب العربيّ الذي يُراد به ما سمّته وزيرة الخارجية الأمريكيّة (هيلاري كلينتون): «بالفضى الخلاقّة» في الدول العربيّة الإسلاميّة، فيصدّرون لنا مساوى النظام ويحتفظون هم بمزاياه.

• وذلك تصديقاً لقول أحد المستشرقين الألمان: « لقد استوردنا منكم فضائلكم، وصدّرتنا إليكم رذائلنا ».

